العرب قبل التاريخ

لجناب رفعتلو جرجي افندي بني

يُراد بالزمن الواقع قبل التاريخ حين اذ كان البشر في حال السذاجة الفطرية يقطعون الضروري من العيش ساعين اليهِ من اقرب السبل الظاهرة لهم بالبداهة والمشاهدة قبل ان تنوّعت معدّات ارتقائهم وتدرّجوا في مراقي الحضارة ذلك ايام لم يُكتب التاريخ ولم تروِ الرواة

وشأن هذا البحث مهمٌّ الّا انهُ كاد يكون غامضًا لا يُهتدى اليهِ لو لم يبذل الاثاريون والقافة من الفرنجة جهدهم العقلي بالتنقيب والتفحص حتى جلوا كثيرًا من حقائقهِ فصار ميدانًا تتجارى فيهِ قرائح علمائهم التماسًا للظفر بالضالة التي يُنشدون

لا جرَم انهُ جاء على البشر حينٌ من الدهر عرّفهُ اهل العلم بزمن الجرف وقع فيهِ مهلك الاحياء الساكنين في المناطق الباردة يومئذٍ على ان اثارهم ظلّت تهدينا اليهم وهذي الكهوف وانقاض المواقع وما تحت طبات التراب ادلّة الباحثين ومصباح المستهدين

ولقد انبأنا علماء الارخيولوجيا (الآثار) ان البشر كانوا لاول عهدهم على حالٍ من السذاجة لا يعرفون معها الّا ما هدتهم اليهِ السليقة ولا يهتدون الّا الى الضروري هدايةً فطريّة ذلك انهم لما شعروا بالحاجة الى الطعام ورأوا الحيوان الاعجم يرعى الكلأ مائلوهُ فاغتذوا بالبقول والاعشاب ثم بالثمار ولما شعروا بالحاجة الى اتقاء الحر والبرد احتذوا حذوَ البهائم فسكنوا الكهوف او انهم كانوا يستظلون بالاشجار اولًا ثم تدرّجوا من ذلك الى سكنى الكهوف كل ذلك وهم عراةٌ حفاة يقضون الايام الطوال بين الوحش فاضطرّوا الى اتقاء غاراتهِ دفاعًا عن انفسهم فاتخذوا لذلك العصيّ من غصون الاشجار او الحصى والحجارة ابداء للضاري وردعًا لهُ عن قصدهم بالشر

وكأن الاوّلين لما شعروا بالبرد شديدًا والحرّ لذّاعًا دعتهم الحاجة الى ايجاد اللباس فاتخذوهُ من اوراق النبات وحسبنا ان الابوين الاولين آدم وحواء قد خاطا المآزر من ورق التين حين اذ عرفا انهما عريانان فكأن فعلهما هذا كان نموذجًا لسائر الاولين الذين عمّروا الارجاء الخصيبة وضفاف الانهار وجداول المياه حيث اغنتهم الطبيعة عن

الناس الكساء بعيدًا عن مواضعهم وكأني بهم كانوا عيالاً على الاشجار التي يجاورون فطعامهم من ثمارها ومساكنهم تحت ظلالها او في بيوت بنوها من غصونها وسلاحهم من قضبها ولباسهم من ورقها

وليس بعيدًا ان يكون المتظللون بوارف الشجر لاول امرهم قد رأوا بالتجربة ان مكانهم في ظلالها لا يفيهم صبارة البرد وحمارة الحر ولا يدفع عنهم طارئة الوحش او يجعلهم في أمن من الدبابات وشهدوا الطيور تأوي عباب الشجر وتتخذ لها بين وريقاتها ميتًا فتحذوا بها على ان تسلق الاشجار لا يتيسر الاَّ للقادرين فيبقى العاجزون والمرضى عرضة لهاتيك الاخطار فولدت الحاجة لهم الحيطة وحدت بهم الى بناء الاكواخ تمثلاً باعشاش الطيور

هذا شأن الذين انعم الباري عزّ وجلّ عليهم بسكنى البلاد الخصيبة . اما الذين عمروا الجبال القاحلة والقفار الحرّة فانما كان عيشهم اعرق في الشظف والشدّة لكن ذلك لم يعدمهم اضطرارًا الى الاختراع وانحال معدّات البقاء حيث نراهم يأخذون عن الحيوان ايضًا مناهج السلوك في سبيل الحياة فانهم لما شهدوا الجوارح والكواسر تنقض على ضعاف الطير والحيوان وتنهش لحمانة تمامًا لمعاشها دفع اشتداد الحاجة بالانسان الى التمثل بها فصاروا يتنصون الطير ويصطادون البهيمة

ومَن تدبر الامر علم انهم رحمهم الله كانوا يومئذٍ لا يشكون من السلاح الاَّ غصون الاشجار وصغار الاحجار فيهجمون بها على العجاوات فيوردونها كؤوس المنيّة . على ان ظفرهم كان نتاج شجاعتهم وتلك لم تأتهم الاَّ بالمزاولة الحادثة من الحاجة وشظف العيش . وقد لا تغني الشجاعة في بعض المواقف عن الحيلة شيئًا وهذي ايسر ما يقدم الفطريّ عليها لانها نتاج الحاجة والخوف ولعلّ ذلك سرّ نصب الشراك للحيوان غير اني لا اخال تخيّلهم بها كان من بدائو فرائحهم لخلوّها يومئذٍ من الخبرة والتثقيف وانما يغلب على الظن انهم عرفوها بما يكونون قد شهدوهُ من صيرورة احد الحيوانات صدفةً الى حفرة لا مناص له منها فصاروا يكثرون من الحفر حتى اعتادها الحيوان واصبح يخافها وما فيه من سليقة الاحتراز فاضطر اصحابها الى تسترها تمويهًا له وايهامًا فلما صار الحيوان بين ايديهم قتلوهُ بالظر او ضربًا واكلوا لحمانه وربما شربوا دمه اذا اعوزهم الماء كما يشربهُ لهذا العهد بعض قبائل الاسكيمو حين اذ تصبح السائلات عندهم جَدًا فيعتاضون بهِ عن الماء واما جلود فرائس الاولين فتصلح ان تكون لهم لباسًا يعالجونها بتدبير قليل ومنها

يصطنعون اكواخهم ان شاءوا ويأوون المغائر والكهوف

ولا خفاء ان هذا البحث حديث النشأة وكان كثيرون من علماء العصر يرون القول به لاسيما بمعاصرة الانسان للماموث والأيل من المستحيلات حتى ظهرت الكهوف في بعض الارجاء الاوربية وانكشف لباحثة المنقبين من علماء الاثر حقيقة المبدإ فوقع لهم التصديق وفوق كل ذي علم عليم

واشتغل جلة من الآثاريين والفاقة في تقرير المبادىء واحقاق الحوادث المتراخية الى القدم فالفوا في ذلك المؤلفات الضخمة حاوية ما لذّ وطاب وأجاد فافاد حاسبين زمن اولئك الاقوام في الشطر الاول من العصر الظرري ايام كانت الادوات من الظر والقرون والاغصان وكانوا يستخدمونها لمصالحهم بخشونة الفطرة والاعراق في البساطة غير انهم ما لبثوا ان بلغوا الشطر الثاني من ذلك العصر اذ صارت ادواتهم احسن هندامًا واقل خشونة

غير ان علماء اوربا وان خاضوا عباب هذا العلم فانما كان مجال ابحاثهم مقصورًا على بلادهم لم يتجاوزها الى الشرق مع ان اسيا مهد البشر ومنبت اسلافهم وقد ادرك سكانها عصرهم الحديدي اي زمن الحضارة والارتقاء ابان كانت اوربا في ظلمات من الجهل والخشونة لتمرّغها يومئذٍ بمأة العصر الظرري

ولو بحث العلماء منهم بين انقاض بلادنا وركامها وفي كهوفها وتحت طيّات ترابها بحثهم في غير موضع لجلوا لنا حقائق اجدادنا الشرقيين القدماء واماطوا اللثام عن كثير من الشؤون الخفيّة على انه لا يُنكر على بلادنا تقادم عهد العمران فيها وتقلّب الدول والامم عليها ووقوع الحروب والزلازل وصنوف الاحن والمصائب مما يسلب الآثار ويذهب بخبآت الارضين ادراج الرياح ولكنّ مع العسر يسرًا اذ لا يعدم الباحثون من على جوانب الانهار مغابر مركومة وكهوفًا مردومة لم يزل امرها خفيًا وسجاف علاّم الغيوب

اما الامّة العربيّة العظيمة فمع ان بلادها ما برحت تحت حجب الخفاء عن عيون علماء الفرنجية فانها لا تعدم سبيلاً للتحقيق من بين صحف آدابها وعلومها وهذا ما اقدمت على بيانه وشافعي لدى لفيف العلماء رغبتي الوقادة في تبيان الواقع وجلاء الحق الصراح خدمة للعلم

ولا خفاء ان لغة كل قوم انما هي دليل شأنهم في الوجود واللغة العربيّة ولا تزيد

القراء الالباء بها علمًا كانت السنة القبائل العربيّة العريقة في البداوة الضاربة في عرض القفار وطولها اتجاعًا للمرتى على ان اختلاف القبائل والبطون اوجب على مرور الازمنة تعدُّد الاسماء والافعال المسمّى والفعل الواحد فكانت اللغة التي يتكلم بها ابعد القبائل عن الحضر واكثرها استغراقًا في البداوة اشدّها عروبة واسلمها من العجمة الا ان تنوّع الالسنة العربيّة لم يخرجها عن الاصل الواحد فظلت سليمة في داخلها من عدوى الجوار ازمنة طوالاً ثمّ تطرّق اليها بعض الكلمات فما يبطنها الاّ وقد اصطبغت بالنسق العربي حتى كادت تخفى الاّ على الناقد البصير ولما استضاءت البلاد بنور العلم واستقل امر المسلمين عدل بضعة من كبار الائمة الى ضبط اصول اللغة بعد اذ جابوا الاقطار العربيّة وانعموا النظر دقيقًا في الفاظها ومعانيها حتى وقفوا على الكثير المهمّ

فاذا تصفحنا كتبهم هذي وجدناها تحتوي كلمات كثيرة تدل الدلالة الصريحة على زمن او ازمنة سابقة عهد تأليفها لكنها تشير الى احوال القوم اشارة تغني الالباء عن صراحة الرواية اذ تنصح عن مرور العصور الثلاث الظرري والشيباني والحديدي على الامة وهي في العروبة الجنة. ونحن الآن نبدأ بايراد ما عثرنا عليه من الكلمات الدالة على العصر الظرري. فنقول ان من ذلك ظرّ الناقة اي ذبحها بالظار وان الظر والظُرَرة والأظرور والمظرور والظرظور انما هو الحجر المحدّد كالسكين ج ظران. ووجود هذا الفعل والاسماء التي تليه يدلّ على امرين احدها ان العرب كانوا منذ بدء وجودهم لا يعرفون من الادوات الاّ الحجارة المسنة جريًا على نسق سائر الفطريين وثانيهما ان استخدام هذه الادوات الحجرية لم يكن محصورًا في قبيلة دون اخرى من قبائلهم وانما كان عند كثير منها بدليل تعدّد الاسماء كما رأيت

وبلاد العرب متسعة الارجاء معظمها قفرٌ بلقع الاّ ان فيها بقعًا من الارضين ذات خصب وغناء سكنها بعض الاوّلين كما سكن سائرهم في البادية وكان كل فريق منهم يتتبع من المعيشة اقرب طرقها اليه لانتفاعه بفوائد الموقع الطبيعيّ اقتداء بالحيوان او ابتداء من عند نفسه مسوقًا الى كلا الامرين بالحاجة الشديدة فاتخذ اهل التلال بيوتهم نحتًا في الصخر او كهوفًا طبيعيّة دلّ على وجودها عندهم اسماؤها المحفوظة في اللغة كغار وغغار ومغارة وكهف وامثالها وكذا رواية العلاّمة ابن خلدون في الجزء الثاني من تاريخه المشهور فانه اثر عن امم عاد الدائرة انهم كانوا ينحتون بيوتهم في الصخر وذلك بين الحجاز والشام وان النبي محمدًا نهى عن دخولها حين مرّ بها بعيد غزوة تبوك.

ولا يخال لي ان القوم احتفروا الكهوف بادىء ذي بدء اهتداء فطريًّا وانما رأوا المغاير الطبيعيَّة على جوانب التلال والآكام فنقلوها نحتًا بالحجر على ضفاف الانهار والجداول ونحن نرى في كثير من مواقع بلادنا السورية امثال هاتيك الكهوف على جوانب مجاري الماء

على ان الاولين لما صاروا الى قنص الحيوان حيلة او صيدهِ اقتدارًا ابتغاء لحمائهِ تمثلاً بضاريات الوحش ذبحوهُ بالظفر كما تتقدَّم ثم سلخوهُ بمحجنةٍ منهُ فتوفرت عندهم الجلود فخاطوا من بعضها كساء واتخذوا منها بيوتًا وحسبك على ذلك ثبتًا طراف وقشع وهما اسمان للبيوت من جلدٍ وفوق هذا فان قبة نجران المشهورة في اخبار العرب كانت مصنوعة من ثمانية جلود. وظلَّ القوم على هذا النهج حتى حينٍ على انهم لما استدجنوا الحيوان واهتدوا الى النساجة تمثلاً بالعنكبوت اصطنعوا بيوتهم من وبر الابل فحموها بجادًا ومن صوف الغنم فدعوها خباء ومن شعر غيرها فعرفوها بالفسطاط على ان منهم ايضًا جماعةً فلدوا المغائر والكهوف فابتنوا البيوت من الطين وسمّوها الجَتر والكبس وهذا الاسم الاخير يُطلق ايضًا على اسم الغار في اصل الجبل وذلك دليل انتقالهم من وسم النوع الواحد الى الآخر. اما الذين نزلوا في الاودية الخصيبة والمروج والمراعي فانما حدتهم الطبيعة الى استخدامها في حاجاتهم ولهذا تراهم قد اتخذوا المساكن من غصون الاشجار وكنى بالخيمة والخص والكوخ والكاخ والشامان ثبتًا

ولا يلتمس من آثار العرب الوقوف على تاريخ طعامهم قبل ان استدجنوا الحيوان على ان خلوَّها من الادلة الراجحة لا يعدم التخمين مجالاً فانا نعلم ان القوم نزلوا بلادهم في صدر عصرهم الظرري وحالهم يومئذٍ بالغ في الخشونة والشظف فلم يكن ميسورًا لهم البقاء على بلغةٍ من العيش الاَّ بالنهام على الاستدجان وتلك خطوةٌ مهمة في الارتقاء ربما لم تأنهم عنوًا وانما جاءوا بها من مواطنهم الاولى وغير ذلك مما لم نهتدِ الى تخمينهِ وجدب شبه الجزيرة التي استوطنوها عميم الاَّ في مواضع معلومة وعلى قلة تكاد لا تذكر فالضرورة قاضية عليهم باستدرار الضرع قوتًا والدليل اللغوي مؤيد لقولنا هذا فان المتصل بنا من اسماء الاطعمة العربيَّة يدل على اغتذائهم باللبن والسمن واللحم والدم ثم تدرجهم الى معالجة الطعام بعدائهِ وهاك بضعة من هاتيك الاسماء وهي الخثينة الحريرة الصحيرة العكيس الفريقة الرغيدة الآصية والرهيَّة والوليقة وغيرهنَّ

وهي اذا انعمت فيها النظر وجدتها على ضروب ثلاث اولها اقدمها عهدًا واعرقها بداوة ومثلها الصحيرة والعكيس وكلاهما لبن حليب يُغلى ثم يُصب عليهِ السمن او

الاهالة فيلعق او يشرب وثانيها ما يتخذ من التمر كالاصبة والفريقة وثالثها اغلاه الدر مرشوشًا فوقه الدقيق او السويق ومثال هذا الضرب سائر الاطعمة المذكورة آنفًا على انها احدث عهدًا من اخواتها بدليل ما فيها من التركيب والمعالجة واستخدام الحبوب . على ان اهل الفطرة لا يبدأون الاَّ بالبسيط الساذج او الطبيعي البحت

فرعاة الانعام الدائبون عليها منذ بدء وجودهم كانوا يغتذون بالبانها تشبهًا بولدانها وبلحومها اقتداء بالضواري وذبح الانعام قديم العهد بينهم منذ كانوا يسمون الجزار مشرّرًا والحجر المتخذ آلة للذبح مشراوًا او ظرًا باسمائه المذكورة قبيل هذا على انهم اذا اصابتهم المجاعة يفصدون النوق ويغتذون بدمائها ويسمون ذلك الدم المجدوم وظلوا على استعماله حتى حظرهُ عليهم الاسلام بعد اذ كان قرى للضيف في ابان الحاجة وفي ذلك ضرب المثل لم يحرم القرى من فصد له

والعرب ولئن حفظت لغتهم شيئًا من آثار اعراقهم في الفطرة والبداوة فقد قدموا من قطر آخر كان على شيء من الارتقاء ولا يعترض على ذلك بان الفطرة سابقة للعمران لان بعض العلماء يزعمون هبوط الانسان من الحضارة الى الفطرة . ومع ان الكتبة مجمعون على مجيء العرب من بلادٍ اخرى فانهم غير متفقين على معرفة ذلك الموضع اذ ذهب فريقٌ منهم الى انهم قدموا من مصر وقال آخرون بمجيئهم من بابل ولعلَّ هذي الرواية ارجح لان مُؤرخي الاسلام يذكرونهم منها ناعيك بقربي لغتهم من اللغات السامية التي كان يتطق بها اهل بلاد النهرين

واذا صحَّ انهم من جالية بابل فلا يراد بذلك سكان تلك الحاضرة العظيمة او جوارها بل البدو الذين كانوا يسرحون في اطراف القطر وقلَّ ان يتصل بهم غير النزر القليل من معدات العمران الذي ارتقى اليه اهل جوارهم على انهُ لا يستغرب كيانهم يومئذٍ على علم قليل بضروريات المعاش فهم ولا بدَّ يعرفون كثيرًا من انواع الحبوب وحسبنا ثبتًا ورود اسمائها عندهم وهذا بضعة منها القمح البر الفول العدس الحمص الرز الدوسر والذرياء والخرّفى والجلبان والباقلى والحنبل والدجر والخلر والبلس والبيقة والترمس والخرّم والشبرم وامثالها من الاسماء القديمة على ان زراعة هذه الحبوب لم تكن عامَّة لما مرَّ من القول بطبيعة القطر العربيّ من حيث قلة الماء وجدب التربة انما ذلك لم يحجب عنهم معرفة الدقيق والسويق بانواعهما لما نعلم من اختلاطهما بكثير من الاطعمة العربية كما سبق فالمعنا فكان سكان الاراضي الخصبة

كانوا زرّاعًا وسائر الامة تأخذ الغلال منهم وهذا رأيٌ مستدّ الى عبارة ابن خلدون القائل والعرب الجائلون في القفار فانهم وان كانوا يأخذون الحبوب والادم من الغلول الاّ ان ذلك في الاحايين وتحت ربقة من حاميتها وعلى الاقلال لقلة وجدهم فلا يتوصلون الى سدّ الخلة او دونها فضلاً عن الرغد والخصب الخ (سنأتي البقية)

الربيع

نظم الشاعر الاديب وفضلو اسعد افندي داغر

خَلع الربيعُ عليكَ عرسَ زمانهِ ... فامهرهُ عينَ الرحيقِ فوق جانهِ
قبل الاوانِ اتاك يُنجزُ وعدهُ ... فلذاك أُهدِ لهُ الثنا باوانهِ
واتاك متاولاً على عرش البها ... والنجرُ يعلو الصدر من ديوانهِ
واتاك من آذارهِ (١) حتى الى ... أيارهِ (٢) والبشرُ طوعُ بنانهِ
والرشدُ من اقمارهِ والمجدُ من ... انصارهِ والسعدُ من اعوانهِ
فكأنهُ والارض عند قدومهِ ... في نورها والجوّ في لمعانهِ
ملكٌ بموكبهِ وانوار الذى ... افراسهُ والشمسُ من فرسانهِ
فصلٌ تفرّدَ عن سواهُ بحسنهِ ... إن غيرهُ حاكاهُ في إحسانهِ
حُسنٌ يعمُّ جميعَ ما فيهِ فكُنْ ... يا ذا الثناء اذًا فداء حسانهِ
حسنٌ يصوّرهُ الزمانُ بقلبهِ ... وينمُّ عن اوصافهِ بلسانهِ
وبهِ شفا الملدوغ من حمة الشتا ... فدوا كليم البرد في بَلَسانهِ
بفديهِ ما في الكون من حيوانهِ ... لنباتهِ بل قبلُ من انسانهِ
بل كلُّ طرفٍ ناظرٍ لجمالهِ ... يفدي ربيع الحسن في انسانهِ
ان كانَ في آذارهِ الدنيا لها ... هذا الجمال فكيف في نيسانهِ (٣)
مولى جمالٍ كنت في شرخ الشتا ... تاقى اشاراتٍ الى اتيانهِ
لاسيّما وشباطُ (٤) في تغييرهِ ... يعنيهِ وهو يخاف من تيانهِ
فكأنهُ بالرغم عنهُ بطبعهِ ... اذ لم يكن يقوى على عصيانهِ
حُسن الربيع سباهُ او ألهاهُ عن ... ذكر الشتاء فجدَّ في نسيانهِ

(١) مارس (٢) مايو (٣) ابريل (٤) فبراير